

روح المعاني

لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وفي بعض الآثار أنهم كانوا يقولون : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب والعجب من فرط جهلهم أما في قولهم الأول فحيث لم يعلموا أن بعث الملك إنما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال تعالى : قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فيمغزل عن إستحقاق مفاوضة الملائكة لأنها منوطة بالتناسب فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذي تقتضيه الحكمة بعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقةين بكلا العالمين الروحاني والجسماني لينأتى لهم الإستفاضة والإفاضة وهذا تابع للإستعداد الأزلي كما لا يخفى وأما في قولهم الثاني فلان مناط الإصطفاء للإيحاء إلى شخص هو التقدم في الإتصاف بما علمت والسبق في إحراز الفضائل وحيازة الملكات السنية جيلة وإكتسابا ولا ريب لأحد في أن للنبي صلى الله عليه وسلم القدح المعلى من ذلك بل له E فيه غاية الغايات القاصية ونهاية النائية يقول رائيه .

وأحسن منك لم تر قط عيني ومثلك قط لم تلد النساء خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء وكذا يقول : ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع وأما التقدم في الرياسة الدنيوية والسبق في نيل الدنية فلا دخل له في ذلك قطعا بل له إخلال به غالبا وما أحسن قول الشافعي رضي الله تعالى عنه من أبيات : لكن من رزق الحجا حرم الغني ضدان مفترقان أي تفرق وماذكروه من اليتيم ان رجع إلى ما في الآية على التوجيه الثاني فبطلانه بطلانه وإن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه صلى الله عليه وسلم فهو أظهر بطلانا وأوضح هديانا وما أطف ما قيل إن أنفس الدر يتيمه وقيل للحسن : لم جعل الله تعالى النبي A يتيما فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه منه فان الله سبحانه هو الذي آواه وأدبه ورباه A هذا والوجه الثاني من الوجهين السابقين في قوله سبحانه : إلى رجل منهم على الوجه الذي ذكرناه هو الذي أراداه صاحب الكشاف ولم ترضه الجلال السيوطي وزعم إن التحامي عنه أولى ثم قال : والذي عندي في تفسير ذلك أن المراد إلى مشهور بينهم يعرفون نسبه وجلالته وأمانته وعفته كما قال سبحانه : في آخر السورة التي قبل لقد جاءكم رسول من أنفسكم فإن هذا هو محل إنكار العجب ويكون هذا وجه مناسبة وضع هذه السورة بعد تلك وإعتلاق أول هذه بآخر تلك ونظيره ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ربنا وابعث فيهم رسولا منهم إلى آخر ما قال وتعقب بأنه غير ظاهر لأنه وإن كان أعظم مما ذكر لكن السياق يقتضي

كفرهم وتذليلهم وتحقير من أعزه ا ١ تعالى وعظمه والذي يقتضيه سبب النزول تعين الوجه الأول هنا فقد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي ا ٢ تعالى عنهما قال : لما بعث ا ٣ تعالى محمدا A رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا : ا ٤ تعالى أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد E فأنزل سبحانه أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم الآية وقوله تعالى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا الآية